الاسلام عبر العصور

● ان الاسلام لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنيات حوله ، وليس بينه وبين أي عقيدة اخرى عداوة ولا خصام وهو لا يضمر الحقد لاي دين .

● ومن حسن حظ الاستعمار ان هـــذه البلاد كانت تخضع - في آخر ايامها - لحكم يحمل الاسم الاسلامي وليس فيه شيء من روحه أو مقاصده .

● ان مستقبل الاسلام زاخر كالبحر ، والشعوب الاسلامية تتفاعل في رحابها قوى ناشئة ، وطاقات فتيـة خلاقة . فعليها وعلى الاديان السماوية عامة ان تبدأ جهادها في اعادة البناء .

بين المدنية والدين — على وجه الاطلاق — عداوة مصطنعة وحب مفقود ، تكاتفت على ايجاده واختراعه وتطوعت لاذاعته واشاعته ، عوامل شتى ، ودوافع مختلفة ، ما زالت تعمل في هـــذا الشرق المهيض بنشاط عجيب ودأب غريب ، رغم اختلاف مناهجها وتعداد اهدافها . غير انها تبدو لعين المدقق البصير ، والبحاثة

الحكيم ، وفيّة لغرض واحد هو : المقصد الدنيء والنية الشريرة .

ولقد تطوعت بعض القوى في فترات قصية ودانيـــة ، وعصور ماضيـــة وحاضره ، على الايقاع بين الاسلام بالذات وبين المدنية ، واظهار هـــذا الدين الحنيف بمظهر المبدأ المتعنت المستبد ، والذي لا تسري في اوصاله الحياة الا اذا تغذى من دم المدنية المسفوح وثقافتها المبددة

رسالتنا :

ودراستنا الآن حول الاسلام في أمسه ، وحاضره ليست الا قصة صادقة عن هذه العقيدة عبر فترتين متباينتين من التاريخ ، نهضت في اولاهما نهضة جبارة ، وسكنت في ثانيتهما سكوناً عجيباً . ومن حق الاسلام علينـــا ، ونحن رواده واتباعه ، ان نظهره للملأ عذباً صافياً كما تنزل من السماء وان ندرسه كمبدأ وعقيـــدة ، تقف وجهاً لوجه مع الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وسواها من مبتكرات العقـــل الانساني وان نلمّ بجوهره وروحه ليتسنى لنـــا من بعد ان ننفي عنه الاوشاب والاعراض ، وان ننزه وجهـــه الكريم من الكلف المفتعل ، وخصوصاً بعد ان استغل هذا الدين اعداؤه ، ونسيه ابناؤه في عصور الجهالة والظلام .

حقيقتـــان :

وقبل ان انتقـــل الى صلب الموضوع ، احب ان اقرر امرين لا جدال فيهما ولا شك في صدقهما وهما :

اولا ــ ان الاسلام كدين سماوي لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنيات حوله . فالقرآن ، كلام الله العلي الاعلى ، مـــا فتىء الينبوع الاول الذي يسقي هـــذه الدوحة الشامخة العملاقة المتـــدة الفروع والاغصان

والاظلال ، وسنة الرسول ما فتئت المشكاة الهادية . امـــا الذين تغيروا وتبدلوا وباعدهم حاضرهم عن امسهم ، اما الذين اضاعوا القرآن وضلوا سواء السبيل ، فهم المسلمون اتباع ذلك الدين الذي كان نظامـــاً وعقيدة ، ففهموه اليوم مجرد شعائر تقليدية ، ومظاهر عادية لا جدوى فيها ولا عطاء .

ثانياً ـ ليس بين الاسلام وبين اي عقيدة اخرى او شعب آخر عداوة تقليدية كما يدعي بعض انصاف المتعلمين ؛ وهو كفكرة ، لا يضمر الحقـــد لاي دين آخر كما يحاو لبعض تجـــار الاديان ان يتخرص ويختلق . وسنعرض لهذه الناحية بالتفصيل الوافي فيما بعد ، والذي يهمنا ذكره الآن هو تعليل الخصام بين الاسلام ، أو على الاصح بين المسلمين وبين سواهم .

الاسلام بين الشرق والغرب :

لقد ولد الاسلام ، في الشرق ، شأن باقي الاديان السماوية ، ولم يحالفه الحظ ، او على الاصح لم يحالف جنوده التوفيق في غزو الغرب واخضاعه لمنهجهم في الحياة وطريقتهم في العيش .

غير ان هـــذا الوضع لم يكن عائقاً لان تتوطد الصداقة بين الشرق المتدين والغرب المتدين ، وتلك هي اخبار (شارلمان) والرشيد غنية عن الدلالة والترديد .

وتوثقت اواصر الاحترام بين الشرق والغرب ، وشاء سوء الطالع ان يسير كل من الصديقين الودودين في اتجاه مغاير للآخر ، وتعاقبت الاجيال وتغيرت الاحوال حتى كان هـــذا العصر ، فاذا بالغرب قد تخلص من قيود دينه السماوي وتنكر لمفاهيمه ، وتمنطق بالعقل الانساني ، وبالمقدرة البشرية ، وسار اشواطـــاً بعيدة في هذا السبيل . اما الشرق فقد فعل العكس تماماً ومـــا زال يراجع نفسه ويطالع امسه ويقلب تراثه السماوي بين يديه حتى بليت يداه واعتلّ فهمـــه وسقمت حيويته وشلت حركته وغفا ردحاً طويلا من الزمن .

جرثومة الاستعمار :

ومن هنا ، من وهن هذا وتطلع ذاك ، من خمول هذا وطمع ذاك ، نشأت الجرثومة القاضية التي نخرت جسم البشرية .. نشأ الاستعمار وملأت تلك الفكرة بصورها الخلابة ، من سيطرة وتسلط وثروة وملك ، ادمغة العالم الغربي في العصر الذي يسميه المؤرخون عصر النهضة ... وبرزت الى الوجود صور الخصومة الحادة حيناً والدامية حيناً آخر بين الصديقين القديمين لتخلي كل منهما عن كنزه واقلاع كل منهما عن فكرته

نظرة على الماضي :

بعد ان قدمنا هذه الايضاحات الاساسية بالنسبة لحقيقة الاسلام ، والهامة بالنسبة لبحثنا ، ينبغي ، لنا كي نستطيع ان ننقل القارىء الى جو الاسلام الصافي وننقل اليه روائع صوره وبدائع اعماله ، ينبغي لنا ان نعود بالزمن القهقرى خمسة عشر قرناً ، الى العصر الجاهلي الاعمى ، الى عصر الضياع الروحي وقلق المصير ، يوم كانت جزيرة العرب تغرق في الجهل والظلام والدم والفتنة ، ويوم كانت الكلمة فيها للسيف الراعف والساعد القوي ، ويوم كانت مصائر الناس ومقاديرهم في قبضة وثنية ساذجة ، ويوم كانوا هم انفسهم عبيداً لاصنام لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، اصنام من نحاس بليد جامد ، او من تمر يلتهمه عبّاده اذا جاعوا .

بداية المعجزة :

في تلك الغمرة من الضلال ، اشرقت في بيت من بيوت قريش طفولة كانت في سجل الزمن صفحة بعث وانطلاق .. فلقد ولد محمد بن عبدالله وولد معه تاريخ

جديد حافل بالاحداث التي قدّر لهـا ان تكون يومـاً مرتكزاً لنهضة جبارة ، وغد مجيد .

وشب اليتيم ليضطلع باعباء الرسالة ويشنّ على الوثنية حرباً لا هوادة فيهـا ولا لين ، ويدعو الى اله واحد لا شريك له ، ويركز في نفوس العرب قيماً جديدة قامت عليها ركائز وثبتهم الكبرى التي حركت ركب الانسانية ودفعته بقوة وعزم الى الطريق السوي والحق المبين .

وقضى محمد وله من العمر ثلاث وستون سنة ، فما هي التركة التي خلفها للبشر من المبادىء والاسس والاصول ؟

حقوق الانسان:

اما حقوق الانسان فقد كان محمد اول واضع لهذه الحقوق التي ادعتها الثورة الفرنسية فلخصها قادتها بكلمات ثلاث او شعارات ثلاثـة : الحرية والمساواة والاخوة . ثم انبرت اميركا بعد ذلك تزعم لنفسها السبق وتعلن في وثيقة الاستقلال عام ١٧٧٦ انها تعدّ الحقائق التالية من البديهيات :

● خلق الناس جميعاً متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقاً خاصة لا تنتزع ، منها : الحياة والحرية والسعي وراء السعادة .

● اما المساواة ومعنـاها ان يكون الناس جميعاً متساوين امـام القانون ، متساوين في الحقوق والواجبات ، فقد اكدهـا محمد بقوله : « الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » و « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ولم يكتف بالقول المجرد بل أتبعه بالعمل الحازم العادل . واجاب صحبه حين

طلبوا منه العفو عن سارقة لشرف أسرتها ومكانتها : « انما أهلك من كان قبلكم. انهم كانوا اذا اذنب الضعيف فيهم عاقبوه ، واذا اذنب الشريف تركوه ، والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

● واما المساواة في القضاء فلم يكن للنبي العربي سوى مجلس قضائي واحد يمثل امامه الناس كلهم دونما تمييز بين رفيع ووضيع ، وغني وفقير .

● واما المساواة في التوظيف فليس ادلّ عليها من هذا الحديث الشريف « من ولى رجلا شيئاً من امور المسلمين وهو يعلم ان فيهم من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين »

● ومثل هذا يقال في الضرائب فانها تجبى من الناس على قدم المساواة فمن كثر ماله كثرت تكاليفه ومن قلّ ماله قلت تكاليفه .

● واما الاخوّة فالنبي العربي هو اول من نادى بالاخوة العقائدية والاخوة الانسانية : « إنما المؤمنون اخوة .. والانسان اخو الانسان أحب ام كره » . وهو اول من آخى بين الانصار والمهاجرين حتى تقاسموا البيوت والاموال ، واول من خص الفقراء والمساكين بحظ موفور من موارد الدولة حتى بات هؤلاء يشعرون بالوجود الصحيح والكرامة الكاملة في امتهم وشعبهم . ولقد تأثر خلفاؤه من بعده بهذا السلوك الانساني الرفيع ، فاعطوا الاماثيل في التغاضي ، وما ونوا عن الجهاد لتحطيم الحواجز الطبقية واشاعة المساواة والعدالة بين الناس

● اما الحرية . فقد هيأ لها الاسلام انقى الاجواء ؛ لقد حرم الشرك بكافة صوره وحاربه بكافة اشكاله ، فالله العلي الاعلى هو وحده رب الناس . فمن يعبد غير الله فهو مشرك ، ومن يستعبد غيره فهو ايضاً مشرك ، وفي هذا قضاء على كل انواع العبوديات . لقد حرر الاسلام الناس من الرق اولا ، حرر اجسادهم من سوط السيد وطغيانه ، ثم حرر بعد ذلك افكارهم وعقولهم ، وفي ظلّ هذا

التسامح وقف خليفة قوي الشخصية عبقري الرأي هو عمر بن الخطاب وصاح في وجه اولئك الذين يطمعون في استعباد الناس واذلالهم صيحته التاريخية المشهورة: « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » .

الاسلام والعقائد

ان انصع صفحة ترصع تاريخ الاسلام هي الصفحة التي خلّفها بعلاقاته مع الاديان وآثاره في معاملتهم . لقد كان لقاؤه مع المسيحية واليهودية لقاء محبة واحترام : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » . وكان شعاره في رسالته : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما كان شعاره في دعوته : « لا اكراه في الدين » .

ويحق لنا ان نقول بفخر ان الاسلام كان يحمي حرية المعتقد ، ويحتضن بالذات أهل الذمة

ولم يُسمع عن رسول الله وعن خلفائه من بعده انهم قتلوا نصرانياً لانه لم يسلم، ولم يسمع عنهم انهم عذبوا كتابياً او سجنوه او منعوه من التعبد ، واقامة شعائر دينه ، ولم ينقل عنهم انهم خلال فتوحاتهم الحربية ودعواتهم السلمية ، هدموا كنيسة او قوّضوا بيعة وانما قال التاريخ : ان رسول الله صالح نصارى نجران وكتب لهم عهداً جاء فيه

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على اموالهم وانفسهم وملتهم وبيعتهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت ايديهم من قليل او كثير ، لا يغير اسقف من اسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يحشرون ولا عشرون ولا يطأ ارضهم جيش » .

المسلمون واهل الكتاب :

ولقد كان للاسلام مع اخوانه اتباع الاديان السماوية الاخرى قصص يرويها التاريخ باعجاب واكبار وتقدير ، اعجاب بالدين الذي حارب من اجل العدالة وبذل من اجل سيادة الحق ، وتفانى من اجل الكرامة الانسانية ، الدين الذي لم يكن بينه وبين مواطنيه من اتباع الديانات الاخرى ولاء محتوم ولا طاعة مفروضة، بل كان بينه وبينهم احترام متبادل ووفاء عظيم ، تفيض به قلوبهم وتتفاعل به نفوسهم ولقد كان من صور هذا الوفاء ، كما حدثنا البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل جموعه ، وجيّش جيوشه وسار الى المسلمين ، بعد ان خرجوا من وقعة اليرموك واكاليل الغار على نواصيهم ، وبعد ان كانوا قد استوفوا الخراج من اهل حمص ليدفعوا عنهم اذى الحرب وليغنوهم عناء القتال . قال البلاذري : « رد المسلمون على اهل حمص ما كانوا اخـــذوا منهم من الخراج وقالوا لهم : قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم ، فقال اهل حمص ، لَولايتكم وعدلكم احبّ الينا مما كنا فيه من الظلم ولندفعنّ جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

وقال البلاذري ايضاً : « ونهض اليهود ــ اليهود انفسهم ــ قائلين : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد . فاغلقوا ابواب المـــدن وحرسوها وكذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود » .

راي مؤرخ غربي :

ولنستمع الآن الى مؤرخ آخر ، انه (آدم متز) حيث يقول :

« ان بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى واعيـــادهم ويأمرون بصيانتها وان الحكومة في حالة انقطاع المطر كانت تأمر بتسيير مواكب يسير فيها

النصارى وعلى رأسهم الاسقف واليهود ومعهم النافخون في الابواق ، وان الاديرة كذلك ازدهرت وتكاثرت » . ولم يقف تسامح المسلمين عند هذا الحد ، فهذا آدم متز يقول مظهراً استغرابه وتعجبه : « من الامور التي نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية فكأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام » .

جريمة الاستعمار :

ان ما فتحنا عليه اعيننا من انشقاق وطني وتباعد عاطفي ، وتباين في الغايات والاهداف .. كل هذا صنعته ايدي المستعمرين .. فانهم لم يجدوا حيلة انفذ ولا وسيلة ادهى من ان يلبسوا مسوح المتدينين ، ويعلقوا على صدورهم اوشحة الصالحين ويرسموا على وجوههم براءة القديسين ، وهم — في الواقع — ابعد ما يكونون عن طهارة الدين وترفع رجاله ، ونواياهم ادنى من ان توصف بالغيرة على مصالح الاله ، لانهم يعبدون انفسهم ، ويقدسون مصالحهم ، ويحترمون تجارتهم ، وما الله والدين من بعد ذلك الا وسيلة ناجحة يفتحون بها اسواقاً جديدة ، ويستعبدون بها شعوبا ضعيفة ، ويمتلكون بها بلاداً واسعة غنية .

ولقد كان من حسن حظ الاستعمار في السابق ، ان هذه البلاد خضعت في آخر ايامها لحكم يحمل الاسم الاسلامي وليس فيه شيء من روحه او مقاصده وليس له مثل طريقته او منهجه : وكان المسلمون تائهين في غمرات من العمايـة والجهل والفوضى ، جعلت بلادهم مسرحا عجيباً من التناقضات والمتباينات . فباسم الدين ولصيانة الطوائف ، تقيم هنا دولة من الدول ، وباسم تحضير الناس وتدينهم تقيم دولة هنالك ، ولا تتورع هذه الدولة من ان تحتضن زوراً وبهتاناً طائفة من الناس وتصطنعهم لنفسها ، لتقف في وجه الدولة الاخرى التي تحتضن طائفة اخرى .

ويا ويح الشرق ! لقد لبث فترة طويلة من الزمن تحارب يمينه شماله ، ويقاتل

شقيقه شقيقُه ، ويجد النار مندلعة في داره ، يحترق منها كبده ولا يدري انه هو وقودها ، وان ابناءه هم حطبها ولهيبها ، ولا يدري انه يسير مغمّض العينين الى هاوية ليس لها قرار .

لا تعصب في الاسلام :

لم اشا التبسط في هذه النقطة الا لأني وعداً قطعته من قبل بأن اظهر انسجام الاسلام في حقيقته مع غيره من العقائد ولأقرر امراً هو ان الاسلام في صفاته بعيد جداً عن التعصب ، وان الجهل او الغرور او الدس الاجنبي او هذا كله مجتمعاً هو الذي أثار في فترات مختلفة من تاريخنا شيئاً من الحقد والريبة وروح العداء بين المسلمين وغير المسلمين .

غير ان الامل يخضوضر الآن في نفوسنا ، ويملؤنا ثقة وايماناً بوحدة الشعوب وتآلفها . وذلك بعد ان برز الوعي الاجتماعي الى الميدان ، وبدت تباشير النهضة العربية على هذا النصف الاخير من هذا القرن ، وظهرت نتائجها الحلوة الباهرة بتحطيم اماني الاستعمار في اكثر من معركة واحدة ، وارتفعت مطارقها لتهوي على رأس الاستعمار نفسه .. وان غداً لناظره قريب .

الاسلام والمدنية

تلك هي الانتصارات المعنوية التي سجلها الاسلام في بداية عهده حتى اخذ بناؤه يتشامخ ، ورقعته تتسع ، فتراه بعد ان اطمأن الى الوضع الروحي والخلقي وحقق حلم الانسانية بالرخاء والسلام والعدالة ، تفرّغ بعلمائه وفلاسفته وادبائه وصناعته ومفكريه الى العمل المثمر المنتج ، تفرغ كل هؤلاء ليعطوا للانسانية حضارة من ازهى الحضارات ، وليتركوا للناس ميراثاً غنياً بالفوائد حافلاً بجلائل الفتوح .

الانتصارات العلمية والعملية :

وسنلقي الآن نظرة عجلى على انتصارات الاسلام العمليـــة والعلمية في سائر الميادين والتي تضفي على المجتمع الصفة الحضارية والقيمة المدنية .

لقد تعلم العرب اللاتينية والاسبانـــية ونقلوا عنهما ، حتى اذا اشتدّ عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلميـــة تظهر وتنمو ولم يلبثوا ، كما يقول غوستاف لوبون ، « ان ادركوا ان التجربـــة والترصّد خير من افضل الكتب فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان واخذوا يختبرون مسائل العلم ويجربونهـــا » . قال (دولامير) ، صاحب تاريخ علم الفلك : « اذا اعددت بين الاغريق راصدَين او ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، امكنك ان ترى بينهم عدداً كبيراً من الرصاد » .

واما في الكيمياء فيقول (غوستاف لوبون) : « انك لا تجد عالمـــاً يونانياً استند في مباحثه الى التجربة ، مع انك تعدّ مئـــات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيماويـــة على التجربة ، فجابر بن حيـــان استاذ لـ (لافوازيه) ، ابي الكيمياء الحديثة .

● لقد عرف العرب الرياضيات فاخترعوا الجبر وطبقوه في عـــلم الهندسة ، وبرعوا في الفلك فاقاموا المراصد في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطليطـــلة وقرطبة ، وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليهـــا العلم في اوروبا الا بعد الف سنة ، ونبغ منهم في هـــذا العلم امثال البتّاني وابنـــاء موسى بن شاكر وابو الوفاء البيروني .

● وعرفوا الفيزياء والميكانيك واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب واتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ . وثبت علمياً انهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

● وفي الوقت الذي كانت فيـــه اوروبا تكتب على الرقوق، وهي الجلود، كان العرب يستعملون الورق وتزدهر في بلادهم مصانعه وينتج عن ذلك نشاط في حركة التدوين والتأليف والنقل يُثري المكتبات العامةوالخاصة ويزوّد الثقافـــة العربية بزاد لا يفنى .

● واقتحم العرب البحر ، فخاضوا عبابـــه ، واذلوا متونـــه باساطيلهم، واستخدموا في الملاحة البوصلة فكانوا بذلك اول من استخدم هـــذا الاختراع الصيني في اسفارهم .

● وبحثوا في الجيولوجيا وتحولات الكرة الارضية واعلن ابن سينا ان هـــذه التحولات انما هي نتيجه تطورات بطيئة تمت بتعاقب العصور ، وجاء علم الارض الحديث يثبت صحة هذه النظرية .

● وبحث علماء العرب في النباتات واستخدموا الكثير منهـــا في اغراض طبية وانشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها اندرها واجودها .

● وظهرت مواهبهم غنية خصبة في الطب فأثروا بمؤلفاتهم المكتبة الغربيـــة وظلت هذه المؤلفات مصدراً ومرجعاً تعتمد عليه الجامعات الاوروبية في تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم «امثال الرازي» الذي بحث في الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري وامراض الاطفال وعلم التشريح، و«علي بن العباس» الذي كتب في الطب النظري والطب العملي ، والرئيس « ابن سينا » الذي نقلت كتبه الى اكثر لغات العالم وظلت مرجعاً عاماً لاطباء العالم واساساً للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون ، ولم ينقطع اطباء جامعة (مونبليه) عن شرح نظرياتـــه وتدريس كتبه الا منذ اقل من قرن .

و « ابو القاسم » القرطبي اشهر جراحي العرب الذي اخترع كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبه والذي قال فيه العالم الطبيعي الكبير (هاللر) : « كانت

كتب ابي القاسم المصدر العام الذي استقى منـــه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر » .

● وعرف العرب علم الوقـــاية وانشأوا المصحات واقاموا المارستانات ، وبرعوا في فن الصيدلة وتحضير العقاقير .

● ولم يهملوا الفنون فازدهرت الموسيقى والغناء في بعض عهودهم ،وترقى فن العمارة وتميز ، بعد ان مرّ بأدوار تقليدية،بطابع خاص ما تزال شواهده قائمة في بلاد المجد المفقود ، في قرطبة واشبيلية والحمراء .

ما هو سبب الوهن :

هذه هي الدلالات التي يعرفها الناس ويتناقلها الرواة ، وتزدحم بهـــا بطون الكتب وهي خير شاهد على ان الاسلام قد اوجد من العرب ومن معتنقيه جميعـــاً امة تعرف رسالتها وتدرك طبيعتها وتؤدي واجبها .. واجبهـــا الذي ينحصر في كلمة واحدة هي الدعوة الى الله والنهوض بالعلم ؛واني لو افرطت في ايراد الاماثيل واثبات الشواهد لاعياني ذلك واجهدني لان الكتب حافلة باخبار العظمة .. عظمة الخلق الاسلامي ونبله ، فياضة بانبـــاء ذلك الطراز الرفيع من السلوك الاجتماعي والفردي الذي اتاح لدعاة الاسلام ان يسيطروا على معظم العـــالم القديم المعروف آنـــذاك ، وان يجعلهم في نظر الشعوب المغلوبة على امرها هـــداة لا فاتحين ، ومهذبين لا منكلين .

ما الذي اوهن اذن هذه الدعوة ؟

من الذي جعل المسلمين في آخر الركب الحضاري ، واطمع كل ذي نزوة او رغبة بهم ؟

هل فقد الاسلام حيويته ، ام ان المسلمين هم الذين فقدوا اخلاصهم ؟

اخبار الانحطاط :

من حق القارىء علينا ، ان نروي له اخبار الانحطاط في المسلمين كما روينا اخبار البعث وذلك لكي تترابط حلقات البحث وتستكمل دراسته .

لقد بدأ البناء الاسلامي ينهار من اللبنة الاولى ، من لبنة الايمان التي سوّاها نبي الاسلام محمد ﷺ ، فالفكرة الاولى محصورة بالمسلمين دون سواهم ، وهي في العرف العقائدي الطريقة التي رآها الاسلام مثلى في تنظيم علاقات البشرية افراداً وجماعات بربهم واخلاصهم له .

والفكرة الثانية ، هي الجهر بهذه العقيدة بعد فهمها روحاً ومعنى ، وتطبيقها بالحسنى ، دون انتقاص من حق شريعة من الشرائع او مجافاة لعقيدة من العقائد او اكراه زيد او عمرو من الناس .

صور قاتمة :

غير ان المسلمين بعد عصر الراشدين مباشرة بدأوا في تحوير هذه المبادىء وتسخير بعض العواطف ، وهكذا تابعوا السير ينقضون في كل عصر فكرة ، ويزلزلون في كل حقبة عقيدة ويبدلون في كل فترة رأياً ... حتى كان عصر الانحطاط وانصرف الناس عن الدين كعقائد مقرونة بالاعمال ، وروحانية مقرونة بالبحث النظري والوعي العلمي ، وتمسكوا به (اي بدينهم)كالفاظ واردة وتقاليد جامدة ، وتعصب فريق منهم تعصباً اعمى لهذه التقاليد ببلاهة وجمود لا يصدقها العقل ، واولع فريق آخر بالجدل العقيم والمناظرات الفارغة ، وحمي وطيس الآراء والمذاهب فيهم ، وبالرغم من ان اصحاب المذاهب من الاولياء الصالحين فان اتباعهم في خراسان (في آخر الدولة العباسية) كانوا يتطاحنون ،

ويتذابحون وتنهر بينهم الدماء ، ولقد روي ان اهل قرية منهم من الشوافعة قد افنوا اهل قرية اخرى عن بكرة ابيهم ، لا لانهم من عبدة الاوثان بل لانهم من الاحناف . كما روي عن فريق من هؤلاء الاحناف اقوال لاذعة بالنسبة لاخوانهم الشوافعة ، منها « ان من ارتحل الى مذهب الشافعي يعزّر » .

ولقد كان طبيعياً والحالة هـــذه ان تنتقل السلطة والرياسة الى غير العرب من الفرس والمماليـــك والاتراك ، وذلك بعـــد ان انغمس اولئك في بحر من الترف والنعيم وتاهوا في خضم من المتع واللذات ؛ تحمر لذكراها وجنة التاريخ أسى وتدمع لها عينه لوعة .

وكان طبيعياً ايضاً ان تنحط الحياة الفكرية انحطاطاً لا مثيل له في تاريخ الامم وان تهمل العلوم العالية والمعارف الكونية وان يهدر الوقت ويضيع الجهد — ان كان هناك جهد في فلسفات نظرية عقيمة ودراسات بيزنطية فارغة — وان تعمل كل هذه المعاول في تهديم كيان المدنية التي زهت في بغداد وازدهرت في دمشق وان تكون نهباً مقسماً ومغنماً يسيراً لكل طامع قوي .

درس في ملك رخج :

قال رتبيل ، ملك رخج وسجستان ، لرسل يزيد بن عبد الملك ، وقد جاؤوا اليه يطالبونه بالخراج ؛ وهو اول مظهر من مظاهر قوة الدولة وسلطانها ، قال لهم : ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ فقالوا له : انقرضوا ، قال : اولئك اوفى منكم عهداً واشد بأساً وان كنتم احسن منهم وجوهاً ، ثم منع الخراج عن امراء المسلمين وخلفائهم .

عصور مظلمة :

ومرت بعد ذلك على المسلمين عصور كالحـــة السواد ، شديدة الظلمة ، اذا

تتبع اخبارهم الدارس فانه لا يصدق انهم احفـــاد اولئك الميامين الذين سبق ذكرهم ، ويتردد في ان ينسبهم الى تلك السلسلة من الابطال امثـــال : ابي عبيدة وخالد وعمر وطارق وصلاح الدين .

لقد محت جحافـــل التتار والمغول معالم العظمة وسيماء البطولة والفداء في تلك الامة ، وكأنهم قد استبدلوا الجبن بالاقدام ، والوهن بالشجاعة ، والذل بالاباء ، والخوف بالشمم .

الهوان العجيب :

روى لنا ابن الاثير حادثـــة أليمة علّق عليها بقوله : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فانا اقدم اليها رجلا واؤخر اخرى ، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي المسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ ولو قال قائل ان اهـــل العالم منذ خلق الله آدم لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .. »

اما هذه الحادثة فهي ان احد التتر اخذ رجلا ولم يجد ما يقتله به ؛ فقال له ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ، فوضع راسه وبقي الى ان اتى التتري بسيف وقتله !!

المرأة الجبارة :

وحـــادثة اخرى وهي ان امرأة (اجـــل امرأة) من التتار دخلت داراً وقتلت جماعة من اهلها وهم يظنونها رجلا ... ويقول ابن الاثير : وامثال ذلك كثيرة ويكفي ان نعلم ان الناس كانوا يتناقلون فيما بينهم ان من حدثك ان التتر انهزموا فلا تصدقه !

عصر الدولة العثمانية :

سأقف عند هذا الحد من عرض الصور عن انحطاط المسلمين وذلك لان الجميع يعرفون مـــاذا حدث بعد ذلك . يعرفون ان النكبات توالت وان الغرب فتـــح عينه على الشرق او على الاصح فتح فاه .

ويعرفون ان الدولة العثمانية قد أرخت جناحها المظلم على بلاد المسلمين ، وبدأ في نهاية حكمها عهد اسود من المظالم والويلات والطغيان ، ويعرفون كيف الحّ الهزال على الرجل المريض ، وكيف طمع الغرب في تركته الضخمـــة حتى اذا كانت الحرب الكبرى اغتنمهـــا الذئب المتربص فرصة للانقضاض على هذه التركة ، ويعرفون كيف استأثرت بالميراث اقوى دول اوروبة (انكلترا وفرنسا ، والى جانبها ايطاليا) ، ويعرفون كيف مدت هذه الدول الثلاث سلطانها تحت اسماء مختلفة من احتلال واستعمار وانتداب ووصاية .

حاضر الاسلام :

بعد هذا العرض المفصل نرى ان الامة الاسلامية ــ كطائفة ذات عقيدة واسلوب خاص في الحياة ــ قد خضعت ، شأن بقية الامم والشعوب ، للقاعدة الاجتماعية التي تجعل تاريخ الامـــة مهما امتدت اصوله ومهما تعاظمت فروعه ، يتبع منهجاً واحداً هو : الطفولة والشباب والشيخوخة .. ثم الانبعاث ...

وامنيتي ان اكون قد وفقت في تصوير الاطوار الثلاثة الاولى لحياة المسلمين . واستخراج الحكمـــة من مكنونات احداثها لما في ذلك من علاقة وطيدة بعقيدتهم ودينهم .

بقي الآن ان نتطلع الى الحاضر .. وان نتشوف المستقبل .

ان حاضر الاسلام زاخر كالبحر الخضم تصطخب على اديمه امواج موّارة وان

الشعوب الاسلامية اليوم تتفاعل في رحابها قوى ناشئة، وتتعاظم في ارجائها طاقات فتية خلاقة، صلب عودها واشتد ساعدها، نفضت عن اثوابها غبار الماضي وعن اعينها نعاس الظلام بعد ان امتدت اصابع النور من فجر النهضة توقظ فيها كوامن الحيوية وبواعث الانعتاق ، في هذه الفورة التي يلحظها المعنيون بدقائق الامور في الشرق والغرب، لا بد لنا ان نقرر ان حركة الاسلام — ان صح التعبير — في القرن العشرين غير حركته في القرن الثامن ، فقد انتفت بينه وبين الدنيا فوارق الزمن وحواجز التقاليد .

ولم يعد امامه منفسح من الوقت او من المكان يهتم فيه بالدعوة الى الله .. كما كان يفعل في حقبة شبابه لان كلمة (الله) سبحانه وتعالى فقدت سحرها ولم يعد لها اثر في ادمغة البشر ، ولان فريقاً منهم اصبح ينظر الى نفسه ويقول اين الاله ؟ ولان المسلمين انفسهم لهم من دنياهم ما يشغلهم عن آخرتهم ولهم من ذاتهم ما يغلّ ايديهم عن اهدافهم

غير ان هذه الاوضاع ، بتعقيدها وصعوبتها ، وهمومها واحزانها ، وكفرها والحادها ، لا تعني ان الاسلام فقد مكانه في الوجود .. وفقد عمله في الخلق .

انقاذ وقيادة :

لا ، ان الاسلام ما دام حيا نابضاً في جوانح رجاله ليحمل امانته العظمى ورسالته الكبرى ، التي ظل يحملها في اطوار حياته الناهضة والجامدة ، السعيدة والبائسة ، هذه الامانة هي انقاذ الانسان من حيوانيته ، والسمو به الى روحانية مترفعة ، هي قيادة الناس نحو احترام ذاتهم لا بانكار الاله ورفض هيمنته بل بمعرفة الانسان وادراك واجبه وطبيعته . فان كل ما نشاهده من تمكن الحقد بين البشر ، واستحكام البغضاء فيهم ، حتى لا تمر فترة على الارض دون ان يختضب اديمها

بالدماء ، وتلفها عباءة كالحة من النار والبارود والدمار ، ان كل هذا يدل على ان الانسانية بحاجة الى الاسلام والى كل دين سماوي آخر .

الصراع المقدس :

ان الصراع القادم ليس بين الاسلام وبين التيارات المادية والنزعات الالحادية فحسب ؛ انه سيكون صراعاً مرّاً بين قوى الخير وقوى الشر ، بين الروحانية بوداعتها وثقتها ، والمادية بجبروتها وجحودها ، ولن تقتصر نتائج هذا الصراع على مبدأ بعينه او عقيدة بذاتها فتحكم عليها بالفشل او تنعتها بالجمود ..

لا .. فان الالحاد ميكانيكي الطريقة ، حديث التفكير ، شديد البطش ، وهو لن يتيح لانفاس الروحانية ان تتردد في صدور المجتمع ، ولن يترك لحيوية التدين ان يسري مفعولها في اوصال الناس .. اذ لا حياة للالحاد مع فكرة الله اصلاً ، لانه يعتبرها وهماً نسجه عقل الانسان وخياله في حالة من حالات الضعف والوهن .

اننا متفائلون :

وقد يتساءل البعض عن روح التفاؤل العجيب الذي ابديناه في صدر هذه الناحية من البحث وقررنا فيه امكانية الانبعاث من جديد والجهاد من جديد لخلق مجتمع حر متدين ؟

ان الذي املى علينا التفاؤل ، هو فعالية الاسلام وتطوره ، وعدم مجافاته لوسائل البحث العلمي ، والاستدلال العقلي ، والطريقة المنطقية في الكشف عن معميات العقل الانساني ومجهولاته . والاسلام هو الدين الذي لا يقبل ايمان اتباعه بمبادئه ايماناً تقليدياً جافاً ، ولا يرضى ان يكون معتنقوه يحملونه اسماً لا حقيقة ، ونقلاً لا يقيناً . ومن مبادىء القرآن الكريم : « فاعلم انه لا اله الا الله » وهو حين لا

يقبل من ابنائه الا علماً راسخاً على قواعد المنطق بالوحدانية ، يدعوهم بالتالي الى العلم بكل صغيرة وكبيرة حولهم والاحاطة بكل مجهول لديهم ، كما يدعوهم الى البحث في اعماق السماء وما يتلألأ فيها وفي ارجاء الارض وما يدب عليها فيقول لهم : « قل **انظروا ماذا في السموات والارض** » وطبيعي جداً ان النظر المطلوب هنا انما هو النظر العلمي البحت المقرون بالسمو الخلقي .

فالاسلام المتفاعل ، المتطور ، المتسلح بالعلم والمعرفة ، جدير اذن ان يقف وجهاً لوجه مع دعاة المادية ومهرجي الالحاد . وهو بوجهه الصافي واديمه الناصع خليق ان يكشف سوءاتهم حين يقابلونه ، وخليق بان يظهر لهم مواطن الضعف فيهم ، ومواطن الانحلال في طريقتهم .. إذ لا يدحر الظلام الا النور ولا يذهب السواد الا البياض .

الاسلام والنظريات المادية :

ان تاريخ الدعوات المادية يدلنا على انه كان وليد ازمات خانقة لبعض الطوائف التي تمتهن الاستغلال .. وتطلب اي ربح .. الا الربح الحلال .. ومن منا لا يعلم ان الصهيونية حين فكر علماؤها ان يسيطروا على الغرب ويهيمنوا عليه بنظرياتهم حفظاً لانفسهم من العصبية الروحية التي كانت تسيطر على دول اوروبا ، وضعوا بذور النهضة العلمية المادية البحتة ، وشرعوا بمحاربة العقيدة الروحية محاربة لا موادة فيها ولا لين سواء بايديهم او بايدي عملائهم او بوسائل الاغراء والتمجيد لكيان الملحدين . وليس ادل على ذلك من تلك المؤلفات التي ظهرت في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر طافحة ببذور الالحاد تدسها في كل ناحية ، مليئة بسموم المادية تنفثها في كل مكان . على ان القرن العشرين ما كاد يطل حتى اصبحت النظرية المادية تسيطر على العالم من كل جانب ، وحتى امتدت اصابعها الى اوساط التشريع ، ودست انفها في المذاهب الفلسفية الحديثة فسمعنا بـ(ماركس)

و (انجلز) وسواهما كما سمعنا بالشيوعية والفاشية والنازية وغيرهـــا من المذاهب الاشتراكية والتي سيطرت على الجامعات وكافة الاوساط العلميـــة واستطاعت ان تخضع لمنطقها بعض الاوساط الدينية .. وحين اشتدت الصلة بين الشرق والغرب واخذ طلابنا يتوافدون للدراسة ليستطيعوا ان يتبينوا تلك النوايا الخفية التي دسها علماء المادة في الغرب في معطيات الفكر فنقلوها الى الشرق بقضها وقضيضها وخيرها وشرها ، نقلوهـــا وهم يتيهون فخراً بالمظاهر الجديدة والافكار الجديدة .. وظنوا انهم باذاعتهم اياها انمـــا يدللون على مبلغ علمهم وسعة ثقافتهم .. وفاتهم ان الافكار التي بهرتهم جدتها ، وخلبتهم جرأتها، وسحرهم اسم مبتكرها ، واعماهم حب التقليد عن التبصر والتفكير ، اجل فاتهم ان هذه الافكار ليس فيها من الجديد الا اسمها .. أما نتائجها .. وما تضمنه للمجتمع من الرخاء والسعادة .. فأمور سبقها اليهـــا الاسلام وقررها منذ خمسة عشر قرناً تقريباً .

فقبل ان يكون ماركس وانجلز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية كان الاسلام اباً للاشتراكية ، وكان محمد بن عبد الله امامها الاول .

الاشتراكيون انت امامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء

ولو ان انساناً تخيّر ملـــة ... ما اختار الا دينك الفقراء

داويت متئداً وداووا طفرة ... واخفّ من بعض الدواء الداء

فالضمانات الاقتصادية التي جاء بها الاسلام ، وبوسعها ان تغـــني المجتمع عن المبادىء الاشتراكية وسواها من المبادىء ، كثيرة اهمها : الزكاة والوقف وقانون الوراثة وتحريم الاسراف والتبذير والفائدة والربا ومبـــدأ المصالح المرسلة ومبدأ شيوع الموارد العـــامة ومبـــدأ تحريم الترف ومبـــدأ تحريم الكنز . وفي هذه الضمانات تظهر الخطـــوط الاشتراكيـــة العمليـــة التي يمكن لنظـــام الاسلام الاقتصادي بها ان يتوضح وان يستقرّ

اما من الناحية الاجتماعية فبوسع الاسلام ايضاً ان يحقق العدالة الاجتماعية وان يهدم حواجز الطبقات وان يقيم اركان المجتمع الفاضل .

العمال بنظر الاسلام :

ولئن كانت النظم الاجتماعية والاشتراكية منها بوجه خاص تتغنى في عصرنا الحاضر بما حققته للمواطن من ضمانات وللعامل من حماية ، فانظروا الى اي حد يقدّم الاسلام هذه الضمانات والى اي مدى يمجد الطبقة الكادحة ؛ فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما كسب رجل كسباً اطيب من عمل يده » ؛ وروي انه ذكر للرسول مرة رجل كثير العبادة ولكنه لايعمل فقال رسول الله :« من يقوم به؟ » قالوا « اخوه » ، قال النبي عندئذ : « اخوه أعبد منه » ، ثم قال : «ان الله يحب العبد المحترف » ؛ ومرّ النبي يوماً على رجل فرأى اصحاب الرسول من جلد هذا الرجل ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه ؛ قالوا : « يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله » فقال الرسول : « ان كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فيعفها فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » ؛ وورد ان الرسول عليه السلام قبل يداً ورمت من كثرة العمل ثم قال : « تلك يد يحبها الله ورسوله » ؛ كما ورد عنه قوله : « من أمسى كالاً من عمل يده امسى مغفوراً له » ؛

مثل رمزي :

فأي تمجيد للعمل ، يفوق هذا التمجيد ؟ ألا يوازي هذا على الاقل التكريم الذي تريده الاشتراكية للعمل والعمال اما العامل فقد حماه الاسلام وأوصى بالمحافظة على حقه وحذر من انتقاصه والافتئات عليه ؛ وضرب لذلك مثلا فيه كثير

من البساطة ولكنه رائع التلقين ، فقد حكي ان رجالا آواهم المبيت الى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدته عليهم ، فدعا كل منهم ربه باحسن عمل قدمه في حياته كي ينقذه من ورطته ، فكان الاول براً بوالديه ، والثاني حفيظاً على الاعراض ، وتوجه كلاهما الى الله بصالح عمله فانفرجت الصخرة قليلا عن فم الكهف ، غير ان ذلك لم يمكنهم من الخروج حتى قال الثالث : « اللهم اني استأجرت اجراء واعطيتهم اجرهم غير رجل واحد ترك الذي له فثمرت اجره حتى كثرت منه الاموال فجاءني بعد حين فقال لي : يا عبد الله أدّ لي اجري ، فقلت له : كل ما ترى من الابل والبقر والغنم فهو من اجرك ، فقال : ياعبدالله لا تستهزىء بي ، فقلت : اني لا استهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه امامه فلم يترك منه شيئا . ثم قال : اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » .

هذه القصة الرمزية درس رائع في تقديس حق العامل ، فانت في نظر الاسلام حين تبرّ العامل فكأنك تبرّ والديك وتحمي عرضك ، وانت في نظر الاسلام حين تحفظ للعامل حقه تؤدي لله عبادة ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد ، وانما قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الدين واتباع اوامره الله .

الضمان الاجتماعي :

ثم ما هو موقف الاسلام من الضمان الاجتماعي الذي يشكل ركيزة من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟ والى القارىء بعض الامثلة الاسلامية في هذا السبيل : سيق الى عمر بن الخطاب في عام الرمادة ، وهو عام مجاعة ، اعرابي اتهم بالسرقة . ولما سئل الاعرابي عن التهمة اعترف ان الدافع الذي دفعه اليها قاهر غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجني يديه ، وعبثاً حاول ايجاد عمل لنفسه يقيه واطفاله شر

الجوع فلم يفلح . فمـــال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم ، فاجمعوا على تطبيق الحد بحقه ، ولكن عمر ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، ادرك بثاقب بصره الصلة الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، وانتبه الى وظيفة الدولة الاساسية ووجوب تأمينها العمل للجميع واعتبر اغفالها لمثل هذا الاعرابي الفقير تقصيراً في القيـــام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن فالتفت الى الاعرابي وفي عينيه دمعة اكبر من السماح وانبل ، وقال له : اذهب يا اخا العرب ولا تعد لمثلها . ثم التفت الى اصحابه وقال لهم : اجروا عليه من بيت المال الى ان يجد عملا .

ولن اسرد للقارىء قصة هذا الخليفة العظيم مع الارملة العجوز ، فكل قارىء يعرفها ويعرف دلالتها الاجتماعية ، كما يعرف بلا شك قصته مع ذلك الشيـــخ الذمي الذي رآه يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذراً وقال له : ما انصفناك ! اخذنا منك الجزية شاباً وضيعناك شيخاً . ثم امر بان يرتب له من بيت المال مـــا يكفيه في شيخوخته ويجنبه ذلّ السؤال .

من هذه الامثلة ، يتضح لنا ان الاسلام يعرف انواع الضمان التي شاعت في النظم الحديثة كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

اما الاسلام السياسي فانه يعطي العالم كله امثيل رائعة في النبل والتسامـــي والاخوة والمساواة والدفاع عن الحريات وحب السلام والديمقراطية الصحيحة .

كيف تتم عملية الانبعاث :

السؤال الآن : ما العمل ؟ كيف تكون خطة الانبعاث ومنهاجها ؟ وما هو الواجب الملقى على عاتق الاسلام كدين سماوي ليحفظ القيم الانسانية ويصونهـــا من عبث العابثين ومكر الماكرين ؟ ومن هو الذي يحمل القدر الاعظم من مسؤولية هذه الرسالة الكبرى ؟

ان الاصابع كلها تشير الى ان المتهم هو الدولة والفرد . وهذان المتهمان يحملان مسؤولية الضياع وعليهما تتوقف نتيجة الانبعاث .

اما الدولة او المجتمع فعليها ان تحقق العدالة بمفهومها المطلق ، وان تطبق الحق وان تنهج نهجاً سلمياً بنّاءً ... وهذه المبادىء وحدها اذا كانت محمية باسم الدولة كفيلة بان تضبط المجتمع فلا يتحلل ولا يتدنى ولا يتباغض ولا يتباين ولا تأخذه الافتراآت او الاكاذيب ، ولا تؤثر فيه بسهولة ويسر دعوات الهدم المغلف بالغيرة على البائسين والكادحين والفقراء ، ولا تؤثر فيه افتراآت الحرية الفكرية والانطلاق العقلي الذي ليس وراءه الا نسف اليقين بالخير والثواب ؛ وتدمير الايمان بالحق والفضيلة ... هذا هو واجب الدولة .

واجب المعبد والمعهد والبيت :

اما واجب الفرد ومسؤوليته الكبرى في الانبعاث فهي عملية وذاتية .

ومسؤوليته العملية تقوم على ثلاث دعائم : المعبد والمعهد والبيت ، لان المعبد ، ان خلص عمله وتنزهت رسالته ، وادى فريضة الفكر كاملة غير منقوصة ، واستغنى عن شوائب القرون الوسطى وقشور عصور الظلام وتقاليد الجهل والسطحية .

والمعهد ، ان رسمت اهدافه ، وخططت مناهجه ، ورتبت علومه ، وهذبت فصوله .

والبيت ، ان ارسيت دعائمه ، واقيمت عمده ، وكان فيه الوالد الصالح والوالدة الفاضلة .

كل هذه الشروط ، لو تيسر تحقيقها ولو وجد الاسلام المصفى طريقه اليها ،

وقيض لها التفاعل مع اسسه ومبادئه ؛ لو كان ذلك لضمت ارضنا أليق الناس بحمل رسالة السماء الى الارض واحفظهم لها واشدهم تفانياً في صيانتها وتقديسهـــا .

بقي ان نتكلم عن مسؤولية الفرد الذاتية والتي تنحصر في شعور كل منا بانه قيّم على معانٍ نبيلة واهداف نبيلة واهداف سامية ، وانه جندي من جنود الخالق ، وليس الشعور فقط بل العمل الجدي المثمر في احقـــاق الحق والامر بالمعروف ، ولقد كان القرآن الكريم صريحاً في هذه الناحية فاوصى المؤمنين جميعاً ان يكونوا امة من جنود الحق فقال : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » .

المشكاة الواحدة :

هذه هي صفحة المستقبل ان اردنا مستقبلا زاهراً يتيـــه على الماضي المجيد ، وذلك هو واجب الاسلام ... كما انه واجب كل الاديان السماوية وعلى الاخص المسيحية ، فان الحق والفضيلة لا يتبدلان ولو تبـــدلت زاوية النظر اليهما . وان الوقت الذي تفرق فيه الاديان بين ابنائها قد مضى الى غير رجعة واصبح اجهل الناس يعلم ان الاديان السماوية انما انبثقت من مشكاة واحدة فجميعها من السماء وكلها من وحي الله ، ووحي الله لا يتغير ولا يتبدل .

انه ما جاء دين بعد دين الا ليزيد في هيكل الهداية الربانية ركناً من الاركان او يضيف الى قانونه الازلي مادة من المواد ، او يخصص عاماً او يعمم خاصاً ، او يجدد دارساً او يوضح مبهماً ، او لينسخ حكماً قد انتهى اجله ولم يعد صالحاً للحياة . يقول السيد المسيح : « لا تظنوا اني اتيت لاحل الناموس والانبياء اني لم آت لاحلّ لكن لاكمل »، ويقول محمد رسول الله ﷺ : «الانبياء اخوة ابوهم واحد والامهات مختلفات »، ويقول الله تعالى عن القرآن الكريم : « انه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل » ، ويقول : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم

واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى ، وما اوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم » .

متى ؟

ان محنة الانسانية كبرى . وعلى الاديان السماوية عامة ان تبدأ جهادها : وعلى الاسلام خاصة ان يباشر في اعادة البناء ، بناء الطود الذي ما زال يراود اخيلتنا ، ويداعب ظله امانينا ، وتلك هي الخطوة الاولى نحو السعادة التي تنشدها الدول ، والسلام الذى تحار في ايجاده ، واللبنة الاولى التي يتسامى بعدها هيكل شامخ ، من المحبة الانسانية والتفاهم البشري والسعادة العالمية .

« ويقولون متى هو ؟ قل عسى ان يكون قريباً » .